ثاني عشر : أنواع الخطوط العربية

رغم أن ثمة شعوبا غير العرب والمسلمين عرفت استخدام الكتابة والخط كعنصر زخرفي في العمائر والتحف ، إلا أن الخط العربي باتفاق مؤرخي الفن كان الأكثر جمالا وتوفيقا في أداء الدور الفني في الزخرفة ، ولذلك نجد أن الزخرفة الكتابية بالخط العربي بلغت شأنا عظيما في تاريخ الفنون الإسلامية ، إذ أنها تجاوزت دور التأريخ للمنشآت وأصحابها وأخذت دور الإبداع والتجميل والزخرفة .

وقد كانت الزخارف الكتابية العربية التي أبدعها الفنان المسلم على الآثار الثابتة والمنقولة من أهم العناصر الزخرفية التي حاول الابتعاد بها عن مضاهاة خلق الله عزوجل ، ولذلك فقد تعددت وتنوعت الخطوط العربية ، وقد كانت تنسب في البداية إلى الأقاليم الإسلامية ، فانقسمت الخطوط الشمالية إلى قسمين الحجازي ومنه نشأ المكي والمدني ، والخط الحراني ومنه نشأ الكوفي والبصري .

يقول السيد حبيب فضائلي عن أنواع الخط وأصوله :

" لا نعلم بالتحديد أصول كثير من الخطوط ، كما أن أي نوع من الخطوط لم يوجد دفعة واحدة ، ولا بشكل مفاجئ حتى نتمكن من تحديد تاريخ ظهوره بشكل دقيق ، فقد استدعى كل نوع من الخطوط سيرا بطيئا وتدريجيا ، ولا شك أن كل خط خضع لتجارب سنين وقرونا عدة إلى أن تجلى الخط وتكامل ، غير أننا نستطيع تتبع بواكير الخطوط بدراسة كتابات الباحثين وتحقيقاتهم ، وبتفحص جزئيات الصور والأشكال الحرفية .

والخطوط العربية الإسلامية جميعا ترجع أصولها إلى نوعين مع مراعاة التفريع والتشعب ، وهما الكوفي والنسخ ، ومع ذلك فربما تكون للخط العربي جذور أخرى تمتد في القدم إلى خطوط أخرى أقدم منها ، ولم تزل تلك الخطوط تتطور حتى ظهرت اقلام أو خطوط لا تكاد تمت لشكل الخطوط الأولى بصلة إلا بالأحرف ، لكنها مع ذلك لا تنفصل عنها ، لكن مما لا شك أن فيه أنه لم تعن امة بخطها كما عنيت الحضارة العربية بذلك .

1 - الخط الكوفي :

وهو أقدم خط في بلاد العرب ، وكانوا يعتنون به اعتناء عظيما ، وفي أصله قيل إنه كان لعرب اليمن خط يسمى المسند الحميري نسبة إلى قبائل حمير ، وكان للعرب القاطنين في شمال الجزيرة وما حولها خط يسمى النبطي نسبة لقبائل الأنباط الساكنين هناك ، ثم اشتق أهل الحيرة والأنبار من النبطي خطا سمي الحيري أو الأنباري وهو الذي سمي بعد ذلك بالخط الكوفي ، ويرى البعض أنه خط جاف قليل المرونة ، ومع ذلك فهو جميل الحركة ويميل إلى التناسق والاستقامة ، وقد بلغ الخط الكوفي منزلة رفيعة في العصر العباسي لاعتنائهم به وتفننهم في تجميل رسمه وشكله ، وأدخلوا عليه كثيرا من الفنون الزخرفية .

كان الخط الكوفي بسيطا في مبدأ أمره ، لا توريق فيه ولا تعقيد ، ولا ترابط بين حروفه ، ومع ذلك كله فإن المتقن من هذا النوع البسيط لا يخلو من فن زخرفي رصين وهادئ .

وقد ظل الخط الكوفي بأصالته صورة للفن الإسلامي ، وأحد أوجه الإبداع فيه ، ومظهرا من مظاهر الجمال في التعبير عن الكلمة ، وقد فتح هذا الخط الباب واسعا لنماذج أخرى مشتقة منه ، فأصبح له فروع يمكن أن تعد خطوطا جديدة .

وفي الفترات الحديثة انسحب الخط الكوفي عن مكانته تدريجيا ، وبقيت له مساحاته الجمالية في واجهات الكتب ، وعلى جدران القصور والعمائر .

ومن أنواع الخط الكوفي المتطور نجد الكوفي المورق والمشجر الذي تخرج من أطراف حروفه سيقان نباتية دقيقة محملة بالوريقات مختلفة الأشكال ، أو بزخارف أخرى ذات فصوص ، وقد شاع هذا النوع من الزخارف الكوفية في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، وأقدم ما نعرفه من نماذجه المتقنة يرجع إلى القرن الثالث الهجري .

ومن أنواع الخط الكوفي أيضا الكوفي المضفر ذو الحروف المترابطة ، والذي تتداخل فيه حروف الكلمة مع بعضها البعض خاصة حروف الاستطالة للأعلى لتشكل بينها ما يشبه ضفائر الشعر التي تصنعها النساء .

وهناك الكوفي المخملي وتستقر فيه الكتابة فوق أرضية من السيقان والأوراق النباتية ، وهناك الكوفي ذو الأشكال هندسية ويمتاز بأنه شديد الاستقامة قائمة الزوايا .